

حجة الفصل بين المفاهيم في تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي -
دراسة تحليلية -

**The Dissociation of Concepts Argument In Tafsir About
Hayan Al-Andalussi "Al-Bahr Al-Mouhit"**
- Analytical study -

د. يوسف وزري*

جامعة البليدة 2 (الجزائر)

youcefouzeri@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021-07-31	تاريخ التقييم: 2021-11-30	تاريخ القبول: 2021-12-30
---------------------------	---------------------------	--------------------------

الملخص:

يحاول هذا المقال أن يسلط الضوء على الممارسة الحجاجية عند مفسري القرآن الكريم، وبالأخص لدى أبي حيان الأندلسي (ت745هـ) في تفسيره "البحر المحيط": حيث يهدف إلى رصد "حجة الفصل بين المفاهيم" المعتمدة من طرف أبي حيان في سبيل إقناع جمهوره المتلقي، والتي تعد جانبا مهما من التقنيات الحجاجية التي تندرج ضمن نظرية بيرلمان وتيتيكا في كتابهما الخطابية الجديدة.

وتكمن أهمية البحث في إبراز أصالة الممارسة الحجاجية في تراثنا العربي الإسلامي من خلال تحليل النصوص التراثية بواسطة أدوات النظريات الحديثة، وتبيين اهتمام علماء المسلمين بطرق الحجاج وإقناع المخاطبين.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، الفصل بين المفاهيم، البحر المحيط، بيرلمان.

Abstract:

This research aims to highlight the argumentative practice of Tafsir scholars, especially Abou Hayyan Al-Andalousi in his book Al-Bahr Al-Mouhit, it aims to observe "The dissociation of concepts argument" which is used by Abou Hayyan to convince his audience, and that argument is an important part of the argumentative technics in Perelman theory. The importance of this article lies in highlighting the authenticity of the argumentative practice in our Arab and

Islamic heritage through the analysis of heritage texts using modern theories tools, and showing the interest of Muslim scholars in Argumentation styles and convincing audiences.

Key words: Argumentation, dissociation of concepts, Al-Bahr Al-Mouhit.

*المؤلف المراسل.

1. مقدمة:

لقد حظي الحجج باهتمام كبير في التراث العربي، سواء من جانب التنظير أو من جانب الممارسة، ولا سيما بعد الإسلام الذي ما جاء ليكره الناس على اتباعه، وإنما خاطب عقولهم وقلوبهم فدخلوا فيه أفواجا بعد اقتناعهم بحجته الدامغة، وانهم بهم بمعجزته البالغة، وكان لذلك أثر في بروز الحجج كسمة في مختلف نواحي الحياة، السياسية والعقائدية والبيئية اللغوية، فاهتم به البلاغيون والنحاة والمفسرون وعلماء الأصول وغيرهم. وقد أردنا أن نركز في بحثنا هذا على اعتماد أبي حيان الأندلسي¹ في تفسيره البحر المحيط على حجة الفصل بين المفاهيم، الحجة التي تنتمي إلى التقنيات الحججية في نظرية بيرلمان، وذلك في سبيل إبراز أصالة الممارسة الحججية في تراثنا العربي الإسلامي، وتبيين اهتمام المفسرين بطرق الحجج وإقناع المخاطبين، ومن ثمة فإن البحث يحاول الإجابة على الأشكاليات التالية: ما مفهوم حجة الفصل بين المفاهيم؟ وكيف تجلى الاعتماد عليها في تفسير البحر المحيط؟

وقد اعتمدت في هذا البحث على التحليل وفق نظرية بيرلمان للإجابة عن الإشكاليات السابقة.

2. مفهوم الفصل بين المفاهيم ضمن نظرية بيرلمان وتيتيكا:

1.2 التعريف بالنظرية:

تعد نظرية حائيم بيرلمان Chaim Perelman وزميلته لوسي ألبرشتس تيتيكا Lucie Olbrechts-Tyteca أهم نظرية حججية في العصر الحديث، لأنها أعادت الاعتبار للحجج بعدما تناقصت أهميته تدريجيا داخل البلاغة²، وكان التركيز منصبا على الجزء التجميلي أو

التزييني فقط أي على المحسنات والصور الأسلوبية، دون الاهتمام بالإقناع، ولم يعد للحجاج وجود لا كنظرية ولا كمارسة، لا في الثانوية ولا في الجامعة...³ كما يقول كل من فيليب بروتون وجيل غوتيه.

وتظهر خلاصة أعمالهما في كتابهما الموسوم بـ "مصنف في الحجاج - الخطاب الجديدة- (Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique) "الذي كان تميزه نابعا من مزجه معارف عدة في تصورات الحجاجية من جهة، ومحاولاته تخلص الحجاج من الأبنية الاستدلالية المجردة التي كانت تهيمن عليه قديما من جهة أخرى، كما أنه حاول تقريبه إلى مجالات الاستخدام اليومية واللغة المعاصرة للعلوم الإنسانية".⁴

ويرى الدكتور عبد الله صولة أن أهم غاية يرمي إليها هذا الكتاب هو "إخراج الحجاج الذي هو عند المؤلفين سليل الخطابة والجدل معا، من دائرة الخطابة والجدل الذي ظل لفترات طويلة في القدم مرادفا للمنطق نفسه. فالباحثان قد عملا من ناحية أولى على تخلص الحجاج من التهمة اللائطة بأصل نسبه وهو الخطابة، وهذه التهمة هي تهمة المغالطة والمناورة والتلاعب بعواطف الجمهور وب عقله أيضا، ودفعه دفعا إلى القبول باعتبارية الأحكام ولا معقوليتها. وعمل الباحثان من جهة أخرى على تخلص الحجاج من صرامة الاستدلال الذي يجعل المخاطب به في وضع ضرورة وخضوع واستلاب. فالحجاج عندهما معقولة وحرية، وهو حوار من أجل حصول الوفاق بين الأطراف المتحاوره. وهو حوار من أجل حصول التسليم برأي آخر بعيدا عن الاعتباطية واللامعقول اللذين يطبعان الخطابة عادة، وبعيدا عن الإلزام والاضطرار اللذين يطبعان الجدل. ومعنى ذلك كله أن الحجاج عكس العنف بكل مظاهره".⁵

كما تقوم نظريتهما على مقدمات الحجاج التي "تؤخذ على أنها مُسلمات يقبل بها الجمهور"⁶ وذلك مثل الوقائع والحقائق⁷ والافتراضات⁸ والقيم⁹ والمواضع¹⁰، بالإضافة إلى تقنيات الحجاج التي تأخذ الجزء الأكبر من النظرية، فنجدهما قد حصراها في ضربين رئيسيين من الطرائق:

ضرب يتمحور حول طرائق الوصل (Processes of Association)، وضرب يتمحور حول طرائق الفصل (Processes of Dissociation)¹¹، حيث "تتضمن هذه التقنيات إما إنشاء

اتصال أو إنشاء تفكيكك أو فصل"¹²، ويكون الاتصال " بجمع العناصر المنفصلة معا، ما يسمح بتأسيس وحدة فيما بينها..."¹³ ويكون التفكيك " بفصل وعزل وتفريق (dissociating separating, disuniting) العناصر التي تعتبر على أنها تشكل مجموعة كاملة أو على الأقل مجموعة موحدة داخل نظام معين"¹⁴. وسنركز في بحثنا هذا على الضرب الثاني من التقنيات الحجاجية من خلال تحليل بعض النماذج من تفسير أبي حيان.

2.2 مفهوم الفصل بين المفاهيم:

بينما يتم إنشاء الحجج شبه المنطقية والحجج القائمة على بنية الواقع والحجج التي تؤسس بنية الواقع (وهي حجج تنتهي إلى الضرب الأول) من خلال الاتصال أو الوصل بين عناصر غير مترابطة في أصل وجودها، فإنه يتم إنشاء حجج أخرى بواسطة عملية الانفصال؛ حيث "يحدث الحجاج عن طريق الفصل عندما تنقسم فكرة واحدة إلى اثنتين من أجل تجنب عدم قابلية التوافق، فعلى سبيل المثال، عندما يواجه شخص ما عدم توافق ناتج عن الاعتقاد بأن قتل إنسان آخر هو خطأ والاعتقاد المتزامن بأن الإجهاض مقبول، فإن ذلك الشخص يستخدم الحجاج لتفكيك مفهوم الحياة إلى مفهومين: "الحياة بشكل عام" و"حياة الإنسان". في مثل هذه الحالة، يمكن تعريف "الحياة بشكل عام" لتشمل كل النمو العضوي بدءاً من الأميبا¹⁵ (amoeba) إلى الحياة النباتية إلى حياة الزائدة الدودية (appendix)، بينما يتم تعريف "الحياة البشرية" على أنها تتكون فقط من أشكال الحياة التي تمتلك صفات إنسانية معينة مثل الإرادة الحرة. مع هذا التفكك، يمكن (حسب الكاتب) تجنب عدم التوافق الموصوف أعلاه لأنه يمكن النظر إلى الإجهاض على أنه تدمير "للحياة بشكل عام" (بنفس الطريقة التي يدمرها المرء الحياة عند اقتلاع رأس ملفوف أو إزالة زائدة دودية من إنسان)" بدلا من تدمير "الحياة البشرية"¹⁶.

يتكون إجراء حجة على أساس عملية الانفصال من تقديم أزواج فلسفية، وهو عرض يأخذ شكل ما يسميه بيرلمان "الحد الأول" و "الحد الثاني". الحد الأول يتوافق مع المظهر، بينما الحد الثاني يتوافق مع الواقع. في المثال أعلاه، تتوافق "الحياة بشكل عام" مع الحد الأول وتم فصلها عن "الحياة البشرية" أو الحد الثاني. وبالتالي، يُفهم الحد الثاني فقط

بالمقارنة مع الحد الأول ويهدف إلى "التخلص من أوجه عدم التوافق التي قد تظهر بين الجوانب المختلفة للحد الأول".¹⁷

ويذكر عبد الله صولة كيفية تجلي طرائق الفصل في الأقوال والخطابات، ف"سيعبر عن حضور الأزواج الفلسفية بعبارات في اللغة من قبيل: - ظاهري/ حقيقي. ظاهريا/ حقيقيا. وبطرائق من قبيل:

- هو شبه كذا مثل شبه العلمي.

- اللا كذا: اللاعلي مثلا.

- غير كذا: غير صحيح.

- بعض الجمل الاعتراضية كقولنا: إن هذا البطل -إن صح أنه بطل-،...

- بعض الأفعال مثل: يزعم، يتوهم، في قولنا مثلا يزعم أو يتوهم أنه بطل.

- وضع بعض الأقوال بين قوسين أو مزدوجين كأن نكتب: لقد كنت يومها "بطلا"...
.....هذه التعابير كلها وغيرها كثير تستمد مظهرها الحجاجي من فصلها داخل المفهوم الواحد بين ما هو ظاهري يسمُّه وما هو حقيقة ليست له على نحو يصبح المفهوم الواحد منقسما إلى حدين: حد 1 وحد 2 كأن يقال: إن ملكا يفعل هذه الأفعال ليس ملكا".¹⁸

كما يرى بيرلمان وتيتيكا أن " التعريف هو أداة من أدوات الحجاج شبه المنطقي، وكذلك هو أداة لفصل المفاهيم، وخاصة عندما يدعى تقديم المعنى الحقيقي للمفهوم الذي يكون عكس استخدامه المتعارف عليه أو الظاهر".¹⁹ وقدما عدة أمثلة عن التعريف كأداة لفصل المفاهيم مثل التعريف الذي يعطي الحقيقة الأعمق للعمل (حسب صاحبه) بعد إزالة التعريفات المعتادة: من خلال العمل أعني العمل الذي يتم من أجل الإلهي (the divine) وبشكل متزايد بالاتحاد مع الإلهي- للإلهي وحده ولا شيء آخر".²⁰

3. حجة الفصل بين المفاهيم في البحر المحيط:

لقد اعتمد أبو حيان على تقنية الفصل بين المفاهيم والتي تقوم على تفكيك مصطلح واحد أو مفهوم ما وإظهار التمايز والاختلاف داخل ذلك المصطلح أو المفهوم الواحد.

وتتجلى طرائق الفصل بين المفاهيم في خطابات البحر المحيط بعبارات مختلفة، وأهم ما وقفنا عليه هو استعمال عبارة "غير صحيح" والفعل "زعم" بالإضافة إلى استعمال التأويل الذي يعد تقنية حجاجية مهمة.

1.3 الفصل بعبارة "غير صحيح":

جاء في تفسير الآيات الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22)﴾ [البقرة 21 22] قوله: "والألف واللام في الثمرات لتعريف الجنس... فقامت الثمرات مقام الثمر أو الثمار على ما ذهب إليه الزمخشري، لأن هذا من الجمع المحلى بالألف واللام، فهو وإن كان جمع قلة، فإن الألف واللام التي للعموم تنقله من الاختصاص لجمع القلة للعموم، فلا فرق بين الثمرات والثمار، إذ الألف واللام للاستغراق فيهما، ولذلك رد المحققون على من نقد على حسان قوله:

لنا الجفونات الغرُّيلمعن في الضحى ... وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

بأن هذا جمع قلة، فكان ينبغي على زعمه أن يقول: الجفان وسيوفنا، وهو نقد غير صحيح لما ذكرناه من أن الاستغراق ينقله".²¹

لقد بين أبو حيان في تفسير الآية السابقة أن كلمة "الثمار" لا تدل على القلة، لأن الألف واللام نقلته من القلة إلى العموم، فهو هنا يفصل بين ما هو ظاهر (دلالة جمع المؤنث السالم على القلة) وبين ما هو حقيقي (دلالته على العموم بسبب "ال")، وذلك تجنباً لعدم قابلية التوافق، حيث أن الثمرات التي هي بسبب ماء السماء كثيرة ولا حصر لها، وبناء على هذا الفصل والتفكيك حكم على النقد المشهور²² لبیت حسان بن ثابت رضي الله عنه بأنه نقد غير صحيح، فذلك النقد _ حسب أبي حيان _ يحتوي على ظاهر غير ذي قيمة وهو أن الجفونات يَدُلُّنَّ على القلة، والحقيقة هي أنه لفظ لا يدل على القلة بسبب دخول

"ال" التي جعلته دالا على العموم والكثرة، وتجلت تقنية الفصل بالحكم عليه بعبارة "غير صحيح" لأنه يكتفي بالظاهر دون إبراز الحقيقة.

وكذلك نجد الاعتماد على تقنية الفصل عند تفسير الآية الكريمة: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران 7] وذلك فيما نقله عن ابن عطية (ت541هـ) حين قال: "فالمحكم المتضح لمن يفهم كلام العرب من غير نظر، ولا لبس فيه، ويستوي فيه الراسخ وغيره. والمتشابه منه ما لا يعلمه إلا الله، كأمر الروح، وأما الغيبات المخبر بوقوعها، وغير ذلك. ومنه ما يحمل على وجوه في اللغة، فيتأول على الاستقامة كقوله في عيسى: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء 171] إلى غير ذلك. ولا يسمى راسخا إلا من يعلم من هذا النوع كثيرا بحسب ما قدر له، وإلا فمن لا يعلم سوى المحكم فليس براسخ... ومن فسر المتشابه بأنه ما استأثر الله بعلمه فقط، فتفسيره غير صحيح، لأنه تخصيص لبعض المتشابه".²³

نلاحظ أن الكلام الذي نقله أبو حيان عن ابن عطية فيه إظهار لمفهومين متمايزين لكلمة "متشابه"، وذلك بتقسيم مصطلح "المتشابه" إلى قسمين: قسم لا يعلمه إلا الله، وقسم يعلمه الراسخون في العلم بعد حمله على وجوه اللغة، وفي هذا التقسيم رد على الرأي القائل إن المتشابه هو ما يعلمه الله تعالى فقط، الرأي الذي يمثل المظهر لمصطلح "المتشابه" ولا يمثل الحقيقة والواقع، وتجلت حجة الفصل هنا أيضا بعبارة "غير صحيح".

2.3 الفصل بالفعل "زعم":

جاء في تفسير الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة 21] قول أبي حيان: "وتقدم تفسير الخلق في اللغة، وإذا كان بمعنى الاختراع والإنشاء فلا يتصف به إلا الله تعالى. وقد أجمع المسلمون على أن لا خالق إلا الله تعالى، وإذا كان بمعنى التقدير، فمقتضى اللغة أنه قد يوصف به غير الله تعالى، كبيت

زهير²⁴. وقال تعالى: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) [المومنون 14] ، (وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ) [المائدة 110].

وقال أبو عبد الله البصري (ت369هـ)، أستاذ القاضي عبد الجبار (ت415هـ): إطلاق اسم الخالق على الله تعالى محال، لأن التقدير والتسوية عبارة عن الفكر والظن والحسبان، وذلك في حق الله تعالى محال. وكأنَّ أبا عبد الله لم يعلم أن الخلق في اللغة يطلق على الإنشاء، وكلام البصري مصادم لقوله تعالى: (هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ) [الحشر 24]، إذ زعم أنه لا يطلق اسم الخالق على الله، وفي اللغة والقرآن والإجماع ما يرد عليه²⁵.

يظهر استعمال تقنية الفصل واضحاً في المثال السابق، حيث قام أبو حيان بتقسيم مصطلح "الخلق" إلى مفهومين متميزين وهما الإنشاء والتقدير، واعتمد على تقنية الفصل الذي تجلى بالفعل "زعم" ليرد على أبي عبد الله البصري أستاذ القاضي عبد الجبار، ويتبع اعتماده على حجة الفصل بين المفاهيم بتقنيات حجاجية أخرى كالاستشهاد .

ومن الأمثلة التي استعمل فيها أبو حيان تقنية الفصل متجلية بالفعل "زعم" ما جاء في قوله: "آدم: اسم أعجمي كآزر وعابر، ممنوع الصرف للعلمية والعجمة، ومن زعم أنه أفعل مشتق من الأُدْمَة، وهي كالسمر، أو من أديم الأرض، وهو وجهها، فغير صواب، لأن الاشتقاق من الألفاظ العربية قد نص التصريفيون على أنه لا يكون في الأسماء الأعجمية، وقيل: هو عبري من الإدام، وهو التراب، ومن زعم أنه فاعل من أديم الأرض فخطؤه ظاهر لعدم صرفه، وأبعد الطبري (ت310) في زعمه أنه فعل رباعي سُجِّيَ به"²⁶.

نلاحظ كيف فصل أبو حيان بين حقيقة الاسم "آدم" وهي أنه اسم علم أعجمي، وبين مظهره الذي قد يجعله يبدو اسماً مشتقاً من الأُدْمَة أو من أديم الأرض، كما زعم البعض؛ لأن الاشتقاق لا يكون من العربية إلى الأسماء الأعجمية وإلا لما كانت توجد علة بعد العلمية لمنع "آدم" من الصرف²⁷، اللهم إلا إذا اعتبرناه علماً على وزن الفعل مثل نَاطَرَ وَسَامَحَ، ولكن هذا الأمر لا نجد في أسماء علم أعجمية أخرى، مثل عيسى ويعقوب وهاروت وماروت التي نجد أبا حيان يعتمد فيها أيضاً على الفصل بين المفاهيم للرد على من زعم أن عيسى " مشتق من العيس: وهو بياض يخالطه شقرة"²⁸، وعلى من زعم أن هاروت وماروت

مشتقان من الهرت والمرت، وهو الكسر²⁹، وعلى من زعم "أن يعقوب النبي إنما سمي يعقوب لأنه هو وأخوه العيص توأمان، فخرج العيص أولاً ثم خرج هو يعقوب، أو سمي بذلك لكثرة عقبه"³⁰، فهو في الأمثلة السابقة يفصل بين ما هو ظاهر من اشتقاق تلك الأعلام من الكلمات العربية، وبين الحقيقة والواقع اللذان يدلان على أنها أعلام أعجمية لا علاقة لها بالاشتقاق العربي.

كما نجد حجة التقسيم حاضرة في تفسير قول الله تعالى: (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) [البقرة 128]، حين يقول: "وتب علينا: قالوا التوبة من حيث الشريعة تختلف باختلاف التائبين، فتوبة سائر المسلمين الندم بالقلب، والرجوع عن الذنب، والعزم على عدم العود، ورد المظالم إذا أمكن، ونية الرد إذا لم يمكن، وتوبة الخواص الرجوع عن المكروهات من خواطر السوء، والفتور في الأعمال، والإتيان بالعبادة على غير وجه الكمال، وتوبة خواص الخواص لرفع الدرجات، والترقي في المقامات، فإن كان إبراهيم وإسماعيل دعواً لأنفسهما بالتوبة، وكان الضمير في قوله: وتب علينا خاصاً بهما، فيحتمل أن تكون التوبة هنا من هذا القسم الأخير... ولا تدل هذه الآية على جواز وقوع الذنب من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لما ذكرناه من الاحتمال، خلافاً لمن زعم ذلك وقال: التوبة مشروطة بتقدم الذنب، إذ لولا ذلك لاستحال طلب التوبة"³¹.

لقد قسم أبو حيان مفهوم التوبة إلى ثلاثة أنواع: توبة سائر المسلمين، وتوبة الخواص، وتوبة خواص الخواص، وذلك تجنباً لعدم التوافق الذي يحصل من دعاء نبيئين معصومين بالتوبة مع الظاهر الذي يخطر على الذهن وهو حصول الذنب قبل التوبة، ورداً على من قال بذلك، كما يمكننا القول إن الفصل بين المفاهيم قد تجلّى باستعمال الفعل "زعم" وتم إبرازه بواسطته بشكل أوضح.

3.3 الفصل بـ"التأويل":

يعتبر التأويل تقنية حجاجية مهمة، لأنه يسعى إلى تجنب عدم التوافق ، ويحدث ذلك بناء على آلية الفصل بين المفاهيم؛ فإذا أمعنا النظر في بعض النماذج التأويلية في تفسير البحر المحيط، فإننا نجدتها تقوم في الأساس على تقسيم مفهوم الكلمة التي هي محل التأويل إلى عدة معانٍ أو معنيين على الأقل، وذلك إما بنقل الدلالة من الحقيقة إلى المجاز، وإما بالانتقال بين معاني الكلمة إذا كانت من المشترك اللفظي، وقد أعلن أبو حيان ذلك صراحة في قوله: " إذا كان للفظٍ دلالةٌ على التجسيم فنحمله إما على ما يُسَوَّغ فيه من الحقيقة التي يصح نسبتها إلى الله تعالى إن كان اللفظ مشتركاً، أو من المجاز إن كان اللفظ غير مشترك".³²

فدلالة التجسيم هي ما يُحدث التعارض حسب أبي حيان أو عدم التوافق (Incompatibility) حسب نظرية بيرلمان، الأمر الذي يجب تجنبه.

ومن الأمثلة على اعتماد تقنية الفصل القائمة التأويل، ما أورده في تفسير قوله تعالى: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) [الفتحة1]: " ووصف الله تعالى بالرحمة مجاز عن إنعامه على عباده".³³ ثم يقول بعدها في الموضوع نفسه: "وأما الرحمة التي من العباد فليل هي رقة تحدث في القلب".³⁴

نلاحظ في المثال السابق أن أبا حيان قد قسّم مفهوم الرحمة إلى حدين: حد يتصف به المخلوق ويتمثل في الرقة التي تحدث في القلب، وحدٍ يتصف به الخالق وهو جار على المجاز بمعنى الإنعام.

وقال أيضاً في تفسير الآية: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا) [البقرة 26]: " واختلف المفسرون في معنى الاستحياء المنسوب إلى الله تعالى نفيه، فقيل: المعنى لا يترك، فعبر بالحياء عن الترك، قاله الزمخشري وغيره، لأن الترك من ثمرات الحياء، لأن الإنسان إذا استحيا من فعل شيء تركه، فيكون من باب تسمية المسبب باسم السبب.

وقيل: المعنى لا يخشى، وسميت الخشية حياء لأنها من ثمراته، ورجحه الطبري (ت 310هـ). وقد قيل في قوله تعالى: (وَتَخَشَّى النَّاسَ) [الأحزاب 37] أن معناه تستحي من الناس. وقيل: المعنى لا يمتنع. وكل هذه الأقوال متقاربة من حيث المعنى، يجوز أن يوصف الله تعالى بها،

وهذه التأويلات هي على مذهب من يرى التأويل في الأشياء التي موضوعها في اللغة لا ينبغي أن يوصف الله تعالى به، وقيل: ينبغي أن تَمَرَّ على ما جاءت، ونؤمن بها ولا نتأولها ونكل علمها إليه تعالى، لأن صفاته تعالى لا يطلع على ماهيتها الخلق. والذي عليه أكثر أهل العلم أن الله تعالى خاطبنا بلسان العرب، وفيه الحقيقة والمجاز، فما صح في العقل نسبته إليه نسبناه إليه، وما استحال أولناه بما يليق به تعالى، كما نؤول فيما ينسب إلى غيره مما لا يصح نسبته إليه، والحياء بموضوع اللغة لا يصح نسبته إلى الله تعالى، فلذلك أوله أهل العلم³⁵.

نلاحظ أن أبا حيان قد نقل بعض الأقوال المجازية في معاني الحياء المنسوب إلى الله تعالى، وهي الترك والخشية والامتناع، ثم بين أنها أقوال متقاربة من حيث المعنى ويجوز أن يوصف بها الله تعالى، كما بين أن المعنى الحقيقي لا يصح نسبته إلى الله، فهو بذلك يجعل للحياء حدين: الحد الأول الذي يتمثل في المعنى الحقيقي ويمثل المظهر وهو ما يخطر بالذهن في الوهلة الأولى، والحد الثاني والذي يتمثل في المعنى المجازي ويمثل الواقع والحقيقة، وغاية الفصل بين المفاهيم هي تجنب عدم التوافق حسب أصوله العقديّة.

وكذلك اعتمد أبو حيان على تقنية الفصل بين المفاهيم في تأويل "الوجه" في الآية الكريمة: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة 115]، وذلك حين يقول: "قيل: معناه فثم قبلة الله، فيكون الوجه بمعنى الجهة، وأضيف ذلك إلى الله حيث أمر باستقبالها، فهي الجهة التي فيها رضا الله تعالى، قاله الحسن ومجاهد وقتادة ومقاتل. وقيل: الوجه هنا صلة، والمعنى فثم الله أي علمه وحكمه. وروي عن ابن عباس ومقاتل: أو عبر عن الذات بالوجه، كقوله تعالى: (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ) [الرحمن 27]، (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) [القصاص 88] ، وقيل: المعنى العمل لله، قاله الفراء، قال:

أستغفر الله ذنبا لست محصيه ... رب العباد إليه الوجه والعمل

وقيل: يحتمل أن يراد بالوجه هنا: الجاه، كما يقال: فلان وجه القوم، أي موضع شرفهم، ولفلان وجه عند الناس: أي جاه وشرف. والتقدير: فثم جلال الله وعظمته، قاله أبو

منصور في المقنع. وحيث جاء الوجه مضافا إلى الله تعالى، فله محمل في لسان العرب، إذ هو لفظ يطلق على معان، ويستحيل أن يحمل على العضو، وإن كان ذلك أشهر فيه... فالوقوف مع ظاهر اللفظ الدال على التجسيم غباوة وجهل بلسان العرب وأنحاءها ومتصرفاتها في كلامها، وحجج العقول التي مرجع حمل الألفاظ المشكلة إليها".³⁶

لقد قسم أبو حيان معنى كلمة "وجه" إلى عدة معاني، فقط ليحاول أن يثبت أن المعنى الظاهر الذي يعني العضو غير صحيح رغم أنه الأظهر، وأن تلك المعاني الأخرى (القبلة/ الجهة/ الجاه/ لفظ زائد) هي المقصودة من اللفظ، حيث قام بتفكيك معنى الكلمة وإظهار المفاهيم المتميزة التي تغطيها، مستعملا الفصل بين المفاهيم عن طريق المشترك اللفظي في هذا الموضوع؛ وذلك تجنبنا للوقوع في عدم التوافق (Incompatibility) الذي هو التجسيم _ حسب رأيه_ في هذه الآية.

ونجده أيضا قد اعتمد على تقنية الفصل في تأويل المحبة المنسوبة إلى الله تعالى، وذلك في تفسير الآية: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) [البقرة 165]، إذ يقول: "وحب الله العبد: إرادة الثناء عليه وإثابته. وأصل الحب في اللغة: اللزوم، لأن المحب يلزم حبيبه ما أمكن".³⁷

وقال في تفسير الآية: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) [البقرة 190] "وحقيقة المحبة: وهي ميل النفس إلى ما تؤثره مستحيلة في حق الله تعالى، ولا واسطة بين المحبة والبغضاء بالنسبة إلى الله تعالى، لأنهما مجازان عن إرادة ثوابه، وإرادة عقابه، أو عن متعلق الإرادة من الثواب والعقاب".³⁸

لقد فصل أبو حيان بين المعنى الحقيقي الذي يمثل الظاهر وبين المعنى المجازي الذي يمثل _ حسب رأيه _ الحقيقة أو الواقع، حيث يرى أن المحبة من الله تعني إرادة الثناء والإثابة وإرادة الثواب، وليس المقصود منها المعنى الحقيقي في أصل اللغة لأنه مستحيل في حق الله تعالى، ومن ثمة يتبين أنه قام بتقسيم فكرة واحدة إلى قسمين من أجل تجنب عدم التوافق.

4. خاتمة:

وفي ختام مقالنا الذي حاولنا من خلاله تتبع اعتماد أبي حيان الأندلسي على "حجة الفصل بين المفاهيم" في تفسيره البحر المحيط، والتي تعد جانبا مهما من العملية الحجاجية، وخاصة داخل نظرية بيرلمان وتيتيكا، يمكننا إجمال نتائج البحث فيما يلي:

- تقوم حجة الفصل في البحر المحيط على تفكيك مفهوم معين وإظهار التمايز والاختلاف الموجود بداخله مثل تقسيم "المتشابه" إلى قسمين، والتوبة إلى ثلاثة أنواع وغيرها.

- كما يسعى أبو حيان من خلال ذلك التفكيك إلى إبراز كُنْه ذلك المفهوم وجعل حقيقته المخفية تطفو عوض الظاهر الذي لا قيمة له ويبدو هو الحقيقة لدى من يخالفه الرأي.

- وتتجلى حجة الفصل بين المفاهيم في البحر المحيط بطرائق كثيرة وعبارات مختلفة لا نزعم حصرها ولا نقدر على الإحاطة بها لسعة هذا السِّفر التفسيري الكبير، ولكن حسبنا بعض العبارات البارزة التي وقفنا عليها، كاستعمال عبارة "غير صحيح"؛ والفعل "زعم" حيث يذكر القول الذي يريد أن يرد عليه، ثم يبين أنه غير صحيح أو مجرد زعم ويذكر الرأي الصحيح الذي يمثل الحقيقة.

- ويعد التأويل في تفسير أبي حيان من أهم طرائق الفصل بين المفاهيم؛ حيث يُعتمد فيه على نقل دلالة كلمة ما من الحقيقة الظاهرة إلى المجاز المقصود حسب رأيه، مثل تقسيمه لصفة الرحمة والحياء إلى حقيقة ومجاز ليرجح المعاني المجازية، أو الانتقال بين المعاني المختلفة للكلمة الواحدة، مثلما فعل في تفسير "الوجه" ليرجح أن المقصود منها ليس هو المعنى الظاهر.

وفي الأخير نوصي الباحثين في مجال الحجاج أن يتوجهوا نحو كتب التفسير على غرار البحر المحيط، وأن يسعوا لدراسة التقنيات الحجاجية التي يعتمد عليها مفسرو القرآن الكريم في سبيل إقناع جمهورهم المتلقي.

5.الهوامش:

¹ هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الإمام أثير الدين أبو حيان الأندلسي، ولد بـ"مَطَخْشَارَش"، مدينة من حضرة غرناطة في آخر شوال سنة 654هـ، وتوفي في القاهرة سنة 745هـ. ينظر: جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، ج1، ص280. وينظر: شمس الدين الذهبي، معجم محدثي الذهبي، تحقيق روحية عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م، ص179.

²Philippe Breton, Gilles Gauthier, Histoire des théories de L'argumentation, Edition la découverte et Syros, Paris,2000: P31.

³Ibid: P33.

⁴محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2008م، ص 105-106.

⁵عبد الله صولة، الحجاج: أطره ومنطقاته وتقنياته من خلال " مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة" لبرلمان وتيتيكاه، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، جامعة الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، ص 298.

⁶ الحجاج: أطره ومنطقاته وتقنياته: ص308.

⁷ Chaim Perleman and L. Olbrechts- Tyteca, The new Rhetoric a treatise on Argumentation, translated by John Wilkinson and Purcell Weaver, University of Notre Dame; Indiana, 1st ed, 1971, p67.

⁸ Ibid, P70.

⁹ Ibid, P77.

¹⁰ Ibid, 83.

¹¹ Ibid, P190.

¹² Sonja K. Foss, Karen A. Foss, Robert Trapp, Contemporary Perspectives on Rhetoric, Waveland Press, USA, 3rd ED, 1985: P117.

¹³ The new Rhetoric: P190.

¹⁴ Ibid.

¹⁵ عضوية وحيدة الخلية، ينظر: كورين ستوكلي، معجم البيولوجيا المصور، تر: محمد أمين شومان، أكاديميا، بيروت، 1993، ص40.

¹⁶ Contemporary Perspectives on Rhetoric, P121.

¹⁷ Contemporary Perspectives on Rhetoric, P121.

¹⁸ الحجاج: أطره ومنطقاته وتقنياته: ص345.

¹⁹ The new Rhetoric: P444.

²⁰ Ibid.

- ²¹ أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق، صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، دط، 1420هـ، ج1، ص160.
- ²² ينظر: أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق، سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط2، دت، ج9، ص384.
- ²³ البحر المحيط: 29/3.
- ²⁴ يقصد بيت زهير حين مدح رجلا بقوله:
- ولأنت تَفْرِي ما خَلَفْتَ وبع *** ضُ القوم يَخْلُقُ ثم لا يُفْرِي
- ينظر: ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، دار صادر، بيروت ط3، 1414، ج10، ص85.
- ²⁵ البحر المحيط: 154-153/1.
- ²⁶ البحر المحيط: 223/1.
- ²⁷ المنوع من الصرف نوعان: الأول ما يمنع لعله واحدة، والثاني ما يمنع لعلتين، ومن هذا الأخير العلم الأعجمي، ينظر: أبو محمد عبد الله بن عبد الله العقيلي، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تح: إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط5، 2007، ج2، ص122. وأبو محمد عبد الله بن هشام، شرح قطر الندى وبل الصدى، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1994، ص102.
- ²⁸ البحر المحيط: 477/1.
- ²⁹ المصدر نفسه: 529/1.
- ³⁰ المصدر نفسه: 633/1.
- ³¹ المصدر نفسه: 624-623/1.
- ³² المصدر نفسه: 578/1.
- ³³ المصدر نفسه: 31/1.
- ³⁴ المصدر نفسه: 32/1.
- ³⁵ المصدر نفسه: 196/1.
- ³⁶ المصدر نفسه: 578-577/1.
- ³⁷ المصدر نفسه: 87/2.
- ³⁸ المصدر نفسه: 242/2.